

محمد ياسين الحوي

الأمم العربي

احمد بن ماجد

ناحية جيدة من الثقافة البحرية العربية

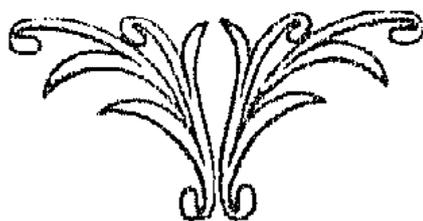


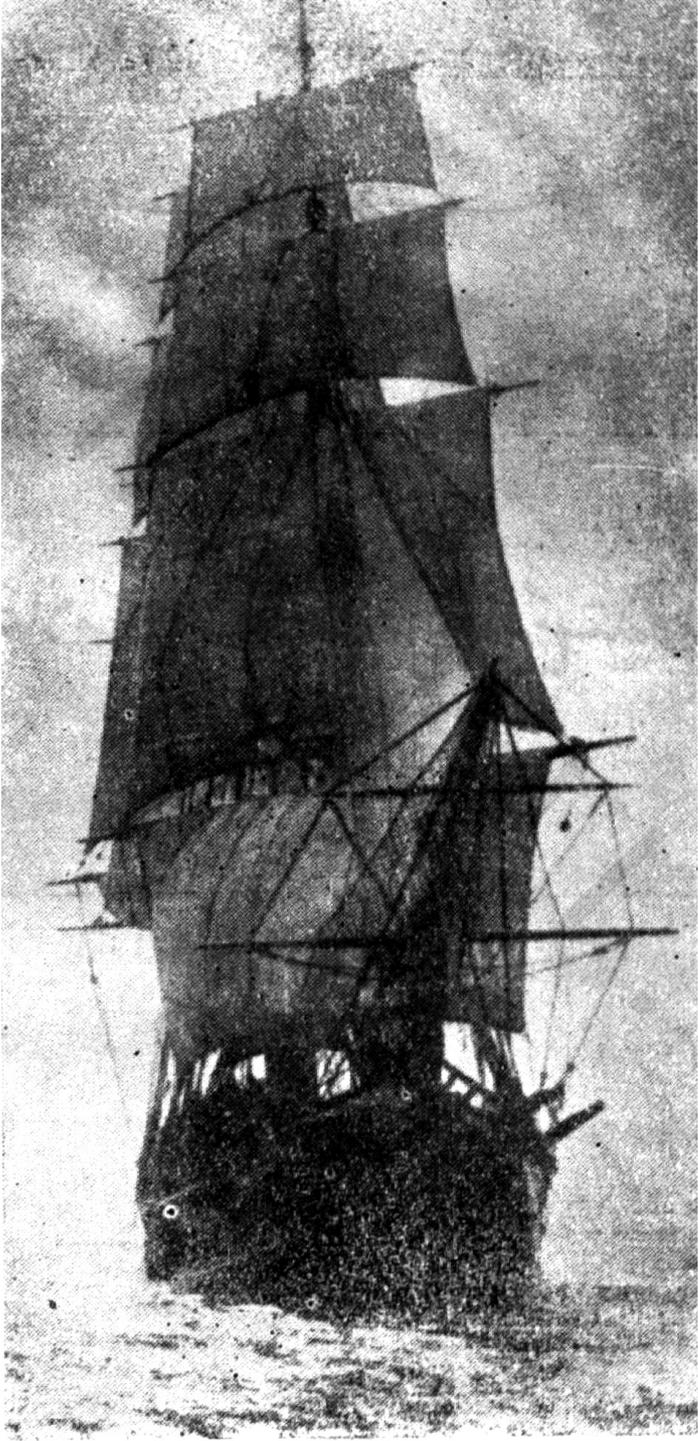
ob
e
i
h
d
.
c
o
m

[REDACTED]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ





قطع العرب في العصور الوسطى شوطاً بعيداً في مدارج الحضارة
وممالك المدنية ، قصر عنهم فيه معاصروهم من أمم الغرب ، ولم يبلغوا شأوهم
ولا مداهم . إذ بينما كان الغربيون في جاهلية جهلاء يثنون مما أصابهم
من ضعف وانحلال ، كان العرب يرحلون في مسارح العلم ويتقبلون في نعاء
الحضارة ؛ تخرس عنهم عباب البحار ، وتجتاز قوافلهم الفيافي والقفار طلباً للتجارة
وهي من أعظم موارد ثروتهم ؛ وبذلك تهباً لهم أن يكشفوا ما يحيط
ببلادهم من مجاهل العمران وينزلوا أخصب البقاع ، ويملكوا أغنى المرافئ
والشغور ، لايجاريهم بها مجاري ، ولا ينافسهم فيها منافس ، فكانت
صقلية ، وقبرص ، وروديس ، وجنوه ، والبندقية من قواعد بحر الروم ؛
وكالكوتا ، وسرنديب من نهور الهند ؛ وجاوا من الأرخيل الشرقي ؛
وبربره وملندي من شواطئ إفريقيا وبحر القانزم ، وسيراف وعمان
على المحيط الهندي والخليج الفارسي محطات لقوافلهم ومراسي لسفنهم .
ولقد عرفوا هذه البلاد كلها ، وسلكوا بحارها ، وبحثوا عن خصائصها ،
وأحصوا ثروتها ، ودرسوا أقاليمها ، وقدروا أبعادها ، وألقوا في جغرافيتها ،

وكتبوا عن عجائبيها ، ووضعوا لها الخرائط والمصورات ؛ وأصبحت الخزانة الجغرافية العربية حافلة بكنوزهم ومؤلفاتهم ؛ عنها أخذ الغرب وبها اهتدى .

ولما دبَّت روح الحياة في القارة الأوروبية ، وتنبَّه العالم الغربي من غفلته في أوائل القرن الخامس عشر ؛ اتجهت أنظارهم إلى الاكتشافات الجغرافية وتحولت أبصارهم لارتياح الأضواء النائية طلباً للاستثمار ، وجعلوا يسيرون سفائنهم في المحيطات التي عرفها العرب ليزاحمهم على مسالكها وينافسهم في ثروتها .

كان ذلك والمُلك العربي قد بلغ به الوهن إلى أبعد حدوده ، فتقطعت أوصاله وتجزأت أطرافه ، وتفرقت كلمته ؛ فبينما نرى في الأندلس صراعاً عنيفاً على آخر معقل عربي بين فرديناند وأبي عبد الله (١) ، نرى المماليك (٢) في مصر والشام يقتتلون على الإمارة والسيادة . أما العراق فكان في شغل شاغل بما نزل به من حملات المغول وغزواتهم . وأما بنو عثمان (٣) فقد ألهمهم نشوة الظفر في أوروبا على البيزنطيين عن كل خادث سواه .

ففي إبان هذه العمرة من التجزئة والتفكك في القومية والدين هام ١٤٩٧ - ١٤٩٨ م ، أي في الوقت الذي غادر فيه كريستوف كولومب المرفأ الإسباني للمرة الثانية لمواصلة اكتشافاته في البر الجديد ، كلّف

(١) عام ١٤٩٧ و ١٤٩٨ م . (٢) ومنهم الملك الأشرف أبو النصر قيتباي .

(٣) وملكهم يومئذ بايزيد الثاني

ملك البرتغال (عمانوئيل الأول) الأدميرال (واسكودوغاما) لاكتشاف طريق الهند ، فخرج بسفنه من لشبونة عام ١٤٩٧ م ، واجتاز سواحل إفريقية الغربية ، حتى وصل إلى رأس الرجاء الصالح ، وكانت القوافل البحرية قبل واسكودوغاما تضلّ الطريق أو تتحطم على صخور رأس الرجاء ولا يقدر لها النجاة . ولكن واسكودوغاما قدر على أن يجتاز هذه العقبة ، ويتحول بسفنه نحو الشمال ، ويسير محاذياً لساحل إفريقية الشرقي ، ويدسط نفوذه على المرافئ التي في طريقه ، وينشئ في أكثرها القلاع والحصون ، ويسكنها جماعة من رجاله يجعلهم فيها وكلاء له لشراء الذهب ، والعنبر ، والعاج . ثم صرّ بمضيق (موزانبيق) واكتشف جزيرة (مدغسكر) وجزائر (القمور) حتى ألقى مرساته في الخامس عشر من شهر آذار سنة ١٤٩٨ م على صرّفاً (ملندي) من مملكة (كامبايا) على ساحل إفريقية الشرقي ، التي كان يحكمها ملوك مستقلون من العرب ، وكانت ذات تجارة واسعة وخيرات كثيرة وعمران زاه زاهر .

وكانت الغاية من رحلة واسكودوغاما هذه أن يصل إلى الهند عن طريق رأس الرجاء ، تلك الطريق التي لا يسلكها إلا تجار العرب وملاحوهم ، ولا يعرفها أحد سواهم ، لاختلاف مهاب الرياح في المحيط الهندي ، وشدة ثورانه وصعوبة ركوبه ، فكيف يمكنه تحقيق غرضه وهو يجهل الطريق ؟ وهنا ندع المؤرخ البرتغالي (كاستنهدا) يروي لنا حكاية الرّبان العربي الذي رافق الأدميرال البرتغالي في رحلته إلى الهند وكان لهذا الحادث

العالمي أعظم أثر في تاريخ الأكتشافات البرتغالية قال : (كان واسكو دوغاما يجهل الطريق البحرية التي يجب عليه أن يسلكها إلى الهند ، فطلب من ملك ملندي أن يرفقه بجار عارف بمجاري المحيط الهندي يرشده إلى الطريق ؛ إلا أن الملك أهمل طلب الأدميرال ولم يكثر به ، فتوترت العلاقات بينهما ؛ وفي اليوم الثاني والعشرين من شهر نيسان من السنة نفسها ، زار أحد خوَّاص الملك الأدميرال ، فاحتفظ به رهينة عنده على المرفأ حتى يُنجى الملك إلى تلبية طلبه ؛ ولما علم الملك بالحادث بادر إلى إرسال ربان يدعى (كانا كوا) واعتذر للأدميرال عن تقصيره ، ثم هادت العلاقات بينهما إلى سابق عهدها .)

وذكر هذا الحادث أيضاً النوتية البرتغاليون في صحيفتهم التي كانوا يصدرونها على ظهر السفينة نفسها ، كما ذكره بتفصيل أكثر مؤرخي البرتغال من رجال القرن السادس عشر ، أمثال : (جونادس دي باروس) فقد قال : « أثناء إقامة واسكو دوغاما في ملندي من مملكة كامبايا ، زاره بعض الهندوس على ظهر السفينة ، وكانوا يكرّمون صورة العذراء لأنهم يرون فيها صورة آلهة هندوسية ، فظنهم واسكو دوغاما من المسيحيين الذين كانوا في الهند منذ أيام القديس توما ؛ وكان يرافقهم أحد مسلمي (جزرات) ويدعى (معلم كانا كا) وقد أخذ يحدث ملاحينا ، وكان الذي حمله على التحدث إليهم ، عاملان : عامل الشغف وحب الاطلاع على أخبارهم وحوادثهم ، وعامل الرضا في النزول عند رغبة ملك ملندي

الذي كان يفتش عن ربان يقبل بمرافقة البرتغاليين ليرشدتهم إلى طريق الهند. وأعجب واسكو دوغاما من حديث هذا الرجل المسلم ومن معلوماته الطريفة، لا سيما عندما أطلعه على مصور لجميع شواطئ الهند، كما يعرفها المسلمون، مع خطوط الطول والعرض بما فيها الدرجات بصورة دقيقة، ولكنها لا تشير إلى مهاب الرياح، مما جعل الجهات الأربع فيها مضبوطة، بخلاف مصوراننا التي يظهر فيها التشويش من اختلاط العلامات الدالة على اتجاه الرياح والأبرة الممغنطة. ثم أخرج واسكو دوغاما للمسلم اصطرلاباً خشبياً كبيراً واصطرلابات أخرى معدنية لقياس ارتفاع الشمس؛ ولكن الرجل المسلم لم يظهر أي دهشة من رؤية هذه الآلات بل قال: إن ربانة العرب في البحر الأحمر كانوا يستعملون آلات من معدن (الشبه) بأشكال مثثة وحرمة لقياس ارتفاع الشمس، وخاصة النجم الذي يستهدون به غالباً في الملاحة، ثم أضاف على ذلك قائلاً: إنه وبمحاورة كامبايا وجميع الهند يبحرون مستعينين ببعض النجوم الشمالية والجنوبية، وبنجوم أخرى تظهر عادة في منتصف السماء من الشرق إلى الغرب، وأنهم لا يقيسون ارتفاع النجوم بما يشبه الآلات التي مع واسكو دوغاما بل بآلات أخرى؛ وأخرجها له فكانت مركبة من ثلاث خشبات، تشبه كثيراً الآلة التي كان المسلمون في بلاد البرتغال يستعملونها. وبعد هذا الحوار الطويل مع الربان العربي اقتنع واسكو دوغاما أنه وجد فيه كنزاً ثميناً، ولكيلا يفقده أقنع به في طريق الهند وذلك في الرابع والعشرين

من نيسان عام ١٤٩٨ م ، وعبر الخليج الكبير الذي يباغ طوله ٦٠٠ فرسخ من شاطئ إلى آخر في اثنين وعشرين يوماً ، دون أن يمترضه حادث . وفي أقل من شهر ألقى واسكو دوغاما مرساته في (كالكوتا) وذلك في ٢٠ أيار . فأرسل إلى البر (المعلم كاناكا) ليخبر ملك البلاد بتقدم الحملة البرتغالية ، فسار الربان العربي براً من (كالكوتا) إلى (كابوكات) وهو صرفاً يقع إلى الشمال قليلاً من كالكوتا حيث كان يقيم أحد المسلمين واسمه مونسيد (أبو سعيد) المفتش لدائرة المكوس ، وكان أبو سعيد يعرف المعلم كاناكا ، فأضاف عنده ليلة اضطر للمبيت في البر مع مرافقه البرتغالي ، وقد قال أبو سعيد إنه من رعايا تونس ، وكانت له علاقات مع البرتغاليين في مدينة وهران عندما قدمت السفن البرتغالية إليها بناء على أمر الملك جونادس الثاني »

أما مؤرخو العرب فانهم سكتوا عن هذا الحادث العظيم ولم يرووا عنه شيئاً ، إلا أن المؤرخ قطب الدين النهروالي في كتابه (البرق اليماني في الفتح العثماني)^(١) عند كلامه عن انتقال الدولة باليمن من بني طاهر إلى الأمير حسين من أمراء الشراكسة قال : « وقع في أول القرن العاشر الحوادث النوادر دخول البرتقال اللعين من طائفة الفرنج الملاعين إلى ديار الهند ، وكانت طائفة منهم يركبون من زقاق بيته^(٢) في البحر

(١) رقم ١٦٤٤ - ٥٠ و ٥٩٢٧ في مكتبة باريس الوطنية بمؤانف قطب الدين

النهروالي - ١٥١١ - ١٥٨٢ - ومن هذا الكتاب نسخة خطية في الخزانة التيبورية في القاهرة . (٢) لعلها سبته .

ويلجئون في الظلمات ويمر (كذا) خلف جبل القمر^(١) ... ويصلون إلى الشرق ويمرون بموضع قريب من الساحل في مضيق أحد جانبيه جبل وبجانب الثاني بحر الظلمات^(٢) في مكان كثير الأمواج لا تستقر به صفائهم وتنكسر ، ولا ينجو منهم أحد ؛ واستمروا على ذلك مدة وهم يهلكون في ذلك المكان ، ولا يخلص من طائفتهم أحد ، إلى أن خلاص منهم غراب^(٣) إلى بحر الهند ، فلا زالوا يتوصلون إلى معرفة هذا البحر ، إلى أن دلتهم شخص ماهر من أهل البحر يقال له (أحمد بن ماجد) صاحبه كبير الفرنج وكان يقال له الملندي^(٤) وعاشره في السكر ، فعلم الطريق في حال سكره وقال لهم : تقربوا الساحل من ذلك المكان وتوغلوا في البحر ، ثم عودوا فلا تنالكم الأمواج ، فلما فعلوا ذلك صار يسلم من الكسر كثير من صراحتهم فكثروا في بحر الهندي ، ووثوا في (كوة) إسم لموضع من داخل الدكن هو تحت الفرنج الآن من بلاد الدكن قلعة يسمونها كوئا ؛ ثم أخذوا هرموز ، وتقدموا هناك وصارت الأمداد تترادف عليهم من البرتقان «

على أن رواية الخيرة والسكر هذه فريدة دسها بعض مواطني قطب الدين من أهالي مكة ، وقد رد عليها العلامة (غبريل فيران) قال : « من المعلوم أن المسلمين لا يقبلون دعوة مسيحي لا يعرفونه حتى يتأكدوا

(١) لعلها جبال القمر . (٢) هو رأس الرجاء الصالح . (٣) اسم

سفينة . (٤) الملندي او الميراتي باللغة الاسبانية معناها أميرال أو ربان البحر .

من طعامه وشرابه إذا كانا لا يحويان ما تمنعه التقاليد الدينية ، لذلك فإننا نشك في قبول الربان العربي دعوة الأدميرال البرتغالي ؛ والذي يظهر لنا أن هذه الرواية مخترعة لتبرير عمل يمهده مسامو مكة خيانة عظمى ، والذي أعتقد أنه المعلم العربي إنما قبل أن يكون دليل الأدميرال البرتغالي لقاء تهويض كبير على خدماته التي قدمها له . »

وأما معنى كانا كما فيقول الاستاذ فيران : « إنها صيغة مستعارة من (كانا كان) أي رياضي ، فلسفي ، كاتب ، والمعلم كانا كما تعني معلم الملاحاة الفلكية . وقد كان الملوك لا يعملون شيئاً دون استشارة الكانانا ، وإن بعض تجار مالابار في الهند كانوا يسترشدون برأيه في أسفارهم . فكانا كما إسم مهنة . والمعلم كانا كما صاحب العلاقات البرتغالية ليس إلا عنواناً لينفرد النص العربي (البرق اليماني) في ذكر اسمه الحقيقي : بإسم الربان أحمد بن ماجد . فهو عربي من مدينة جلفار في مقاطعة عُمان »

وورد اسم ابن ماجد هذا في كتاب (المحيط) لمؤلفه الأدميرال التركي المشهور سيدي علي بن حسين ، وموضوعه (الملاحاة في المحيط الهندي) يقول سيدي علي في مقدمة كتابه (المحيط) : « في عام ١٥٥٤ م أقمت خمسة أشهر في مدينة البصرة حتى بدأت الرياح الموسمية ، ثم أقلت إلى الهند ، وقد دامت رحلتي هذه ثلاثة أشهر ، بتدبني من أول شهر شعبان ، وتنتهي في سلخ شهر شوال أي من ٢ تموز - ٢٧ أيلول ١٥٥٤ م وكنت خلال هذه الأشهر الثمانية أثناء إقامتي ورحلتي لا أدع فرصة تمر دون

أن أشغل نفسي في الحديث بأمور الملاحة مع نوتية السواحل أو ملاحية مختلف البلدان، ممن كانوا على ظهر سفينتي وبذلك عامت كيف عبر الرابنة الأقدمون هرموز وهندستان أمثال : (الليث بن كهلان ، ومحمد بن شادان ، وسهل بن أبان) وكذلك جمعت الكتب التي ألفها البحارة المحدثون أمثال : (أحمد بن ماجد) من جُلفار من مقاطعة عُمان . و (سليمان بن أحمد المهري) من الشِحْر من عرب الجنوب ، كما جمعت الكتب المعروفة : بالفوائد والحاوية لابن ماجد ، وتحفة الفحول والمنهاج ، وقلادة الشموس لسليمان المهري ؛ وتعمقت في دراستها كلها ، إذ الملاحة في المحيط الهندي بدون هذه الكتب جد متعذرة ، فالرابنة والقواد الغريباء لا يعرفون سبل هذا البحر ، ولا بد لهم من ربان يدهم على الطريق مادامت تقصمهم المعلومات الضرورية ؛ ولذا وجدت من اللازم اللزب قراءة أفضل المؤلفات ونقلها إلى اللغة التركية في كتاب يكون دليلاً للرابنة الذين يهمهم معرفة مثل هذه الأمور... وترجمت لهذه الأسفار العربية اتهمت بمعونة الملك القدير جل شأنه وقد حوى كتابي هذا أشياء غريبة كثيرة تتعلق بالملاحة ، وسميته (المحيط) ...

وعندما يتكلم سيدي علي عن ابن ماجد يخصصه بالمدح والإطراء ، ويسميه (الباحث عن الحقيقة بين البحارين) ويقول : هو أفضل رابنة الشاطيء الهندي الغربي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر مقدره ونزاهة — ويختم كلامه عنه بقوله : نعمده الله برحمته » .

أما مؤلفات ابن ماجد فإن له في خزانة المخطوطات العربية في دار الكتب الوطنية في باريس مخطوطين يحويان جميع ما اعتمده الأدميرال التركي في كتابه المحيط . فالمخطوط الأول : ورقه ٢٢٩٢ مجموعة رسائل في الملاحة .

١ - أولها : رسالة تسمى كتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد مقسمة إلى اثني عشرة فائدة ، ويرجع تاريخها إلى عام ١٨٩٥ هـ [١٤١٩ - ٩٠ م] وكتاب الفوائد يبحث عن بعض الأساطير البحرية ، والأبرة المغناطيسية ، ومنازل القمر الثمانية والعشرين ، والنجوم التي تقابل الاثنين والثلاثين خناً للأبرة (الحُك) والطرق البحرية في المحيط الهندي ، ومخطوط عرض بعض مرافق هذا البحر ، وبحر الصين الغربي ، والعلامات والإشارات الموجودة في البحار ، والتي تستهدي بها الطيور ، وتنحطت سواحل الهند الغربية ، والجزر العشر الكبرى وهي : جزيرة العرب ، وجزيرة قُقر ، ومدغشقر (مدغسقر) ، وسومطرا ، وجاوا ، والغور أو فورموزة ، وسوقوطره ، وسيلان ، وزنجبار ، والبحرين . ثم يبحث عن الرياح الموسمية الملائمة للسفر مع تواريخها وفقاً لحساب الفرس . ثم يختم هذه المباحث بوصف للبحر الأحمر وما فيه من رُصُف وأعماق . وقد كتب ابن ماجد هذا الكتاب كما يقول : (من بحار إلى بحارة) لذلك كانت المصطلحات الفنية فيه كثيرة ، عدا عن أسماء الأعلام التي لا يعرفها إلا أرباب هذه المهنة ، وملاحو البحر المحيط الهندي منهم خاصة .

ومن الألفاظ التي استعملها لفظة الجاه ، ويعني به نجماً قرب القطب ، لأن القطب سلطان جميع النجوم المشهورة ومحور الفلك . ولفظة الميخ ، ويعني به مسمار الفلك ؛ وأن القطب ليس بنجم بل هو مكان مائل بين المشرق والمغرب . واتخذ من النجوم أدلة بنات نعش ، وسهلاً ، والناقة ، والحمارين ، والعيوق^(١) ، والعقرب ، والنسر الواقع ، والاكيل ، والسماكين ، والتير وغيرها . . .

أما انشاؤه فاننا نلاحظ في تضاعيف الكتاب أخطاء نحوية وخروجاً على قواعد الاعراب ظاهراً مما يدل على ضعف ابن ماجد في هذه الناحية . ولعل سبب ذلك يرجع إلى قطره الذي نشأ فيه ؛ فان عُمان — وهي مسقط رأسه — فرصة على المحيط الهندي كانت تعرضت لغزوات الفاتحين ، وقصدها أمم وشعوب أعجمية كثيرة استوطنتها ، كالهنود ، والزنج ، والأجاش ، والفُرس وغيرهم من أمم ذلك المحيط ومن كانت لهم أطماع تجارية أوسياسية فيها ؛ أضف إلى هذا كله القبائل العربية التي كانت تنزل فيها أيام المواسم لكافة سوقها التجارية وما يتبع ذلك من اختلاف في لغاتهم ولهجاتهم التي أفسدت على العُمانيين لغتهم مع مرور الأيام حتى عدوا في غير العرب الفصحاء .

٢ — حاوية الاختصار في أصول علم البحار وهي أرجوزة تليف على ألف بيت [من الورقة ٨٨ — ١١٧ الوجه الأيسر] تقدم لها بالمقدمة النظرية التالية :

(١) نجم يتلو الثريا ولا يتقدمها

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَبِهِ نَسْتَعِينُ

الحمد لله على حسن توفيقه وإتمام الحق بتحقيقه والهداية لأسباب الخير وطريقته ، ونصره في تغريب الفلك وتشريقه ، أحمدته على معرفة الممناها وأمدتها السلسبيل البحر ورحيقه ، وفصاحة تدهش بليغ اللفظ ووجيزه ، والصلاة والسلام على النبي الأبي وعلى آله وصحبه وقريبه . أما بعد فخذ التواضع وهزله ورقيق اللفظ وجزله ، فإن التصنيف لمثل هذه الأرجوزة زكاة الأفيام وتجديد سرّ درّسة الليالي والأيام ، أقبلت بي إليها طاعة ملك الأملاك ومدبر العالم والأفلاك ، لقوله جل من قائل : وعلامات وبالنجم هم مهتدون ، فتحققت ظنوني وشاهد قلبي وعيوني ، أن فيها وبها بعد الله تعالى الهداية ومما حل بي ^(١) على نظمها خشيّتي إيقاع الجهل على البرية واندراس العلم ونزوله بساحة ^(٢) ليس له فيه أهلية ، فوضعت فيها من الألفاظ الغريبة والحكمة الربانية بمشيئة الله تعالى ما أرجو به الشراح صدور ذوي الألباب عندما يدهيهم ^(٣) (كذا) من شدة وهصاب ، صفتيها مما سالك في عصري من الأراجيز المصنفة والرهانجات ^(٤) الواسعة المؤلفة ، كثيرة التردد والتكرار ، مستحسنة لسكافة الجمهور ؛ وهي للمضيوم إقالة وحضور (كذا) وكان قصدي الاختصار وإسقاط الحشو من هوش الأكتار لئلا يستطيعها الملول ولا يتفرغ لقراءتها المشغول . فرحم الله من تصفح ما يجده من الدلل ويصاح ما فيها من خطأ وخلل ؛ وهي الأرجوزة

(١) لعله (ومما حملني) . (٢) لعله (بساحة من ليس) .

(٣) لعله (يدهيهم) . (٤) الرهانج والرهانج كتاب الطريق للملاحين في البحر

المسألة بحاوية الاختصار في أصول علم البحار ، مشتملة على أحد عشر فصلاً ؛ تصنيف العبد الفقير المعترف بالمعجز والتقصير أقل عبد (١) الله وأحوجهم إلى رحمة ربه العلي الكبير بنية السلف وعمدة الخلف المعلم الشهير أحمد بن ماجد بن محمد بن عمرو بن فضل بن دويك بن أبو الركايب (كذا) النجدي عني الله عنه وعنهم ، وعن جميع المسلمين آمين . ياكافي ياشافي ياهادي يامعين . الفصل الأول الحمد والشا على الاستاذين ؛ ثم ذكر إشارات تحتاج إليها الرباين مما لا يحمل فصل كالطين والحشيش والبلد والمادن وما أشبه ذلك (كذا) :

٣ - أرجوزة أخرى سماها بالمعربة لأنها أعربت الخليج البربري وصححت قياسه ؛ وتاريخها ٨٩٠ هـ [١٥٨٥ م - ١٤٨٦] وهي نحو مائتي بيت أولها :

يا سائلي عن صفة المجاري ثم قياس الأُنجم الدراري

وقد وصف لنا المسعودي هذا البحر وما يلاقه الربانة فيه من الأهوال وركبه هو من بلاد عُمان مع جماعة من نواخذة السيرافين قال : « ناحية بربرى (٢) هي من بلاد الزنج والحبشة ، ويسمى الخليج البربري . وإست هذه بربرى التي ينسب إليها البرابرة الذين ببلاد المغرب من أرض إفريقية ؛ وأهل المراكب من العمانيين يقطعون هذا الخليج إلى جزيرة قنبلو من الزنج ، وفي هذه البحيرة - الخليج - مسامون من الأَكابر من الزنج ؛

(١) عباد الله . (٢) وقد ضبطها بقوت الحوي بالبناء الربوطة فقال : بربرة .

والعثمانيون الذين ذكرنا من أرباب المراكب يزعمون أن هذا الخليج المعروف بالبربري - وهم يعرفونه ببحر بربري وبلاد جفوني - أكثر مسافة مما ذكرنا، وموجه عظيم كالجبال الشواهدق، فإنه موج أعشى، يريدون بذلك أنه مرتفع كارتفاع الجبال، وينخفض كأخفض ما يكون من الأودية، لا ينكسر موجه ولا يظهر من ذلك زبد كتكسر أمواج سائر البحار، ويزعمون أنه موج مجنون؛ وهؤلاء القوم الذين يركبون هذا البحر من أهل عُمان عرب من الأزد، فإذا توسطوا هذا البحر ودخلوا بين ما ذكرنا من الأمواج ترفهم وتخفضهم فيرتجزون ويقولون:

بربري وجفوني وموجك المجنون
جفوني وبربري وموجها كما ترى «

والذي يتبين لنا من وصف المسعودي أن ما يلاقيه ركاب هذا البحر من الأهوال والمخاطر هو الذي حمل ابن ماجد على تسريته وتصحيحه كما قال يعني أنه وضَّح مسالكه وعين مجاريه ليسهل ركوبه على النواخذة والربانة

٤ - أرجوزة في معرفة القبلة في جميع الأقطار مهَّدها بعقدمة من ثلاثة وثلاثين سطرًا نثرًا ثم استهياها بقوله:

باسم الإله مستعينًا أتدي مصليًا على النبي أحمد
يسهل الشديد من صرامي في نظم در قبلة الاسلام

وهي في نحو خمسمئة بيت، وتاريخها سنة ٨٩٣ هـ - ١٤٨٨ م.

٥ - أرجوزة من مئة بيت على بر العرب في خليج فارس، وليس

لها تاريخ.

رجوزة من مئتين وعشرين بيتاً على فائدة الاستدلال بيمض
النجوم في بنات نمش الكبرى ، وبنات نمش الصغرى على السير في البحر
ويرجع تاريخها إلى سنة ٩٠٠ هـ .

٧ - قصيدة واسمها كنز المعاملة وذخيرتهم في علم المجهولات في البحر ،
والنجوم ، والبروج وأسمائها وأقطابها . وهي من بحر البسيط أولها :
يا أيها الناس مهبا شتم قولوا الأرض معلومة والبحر مجهول
ويختتمها بقوله :

فتتمتها مصلياً المصطفى داع لمن قاس بها بلا خفا
من عصرنا هذا ليوم الحشر مادام فوق البحر فالك مجري
وما يلوح النجم للنواظر وحكم القياس كل شاطر
ولم يذكر تاريخها .

٨ - أرجوزة من مئتين وخمس وخمسين بيتاً في ذكر الموانئ على
ساحل الهند الغربية وبر العرب بين الدرجة السادسة والدرجة الرابعة
والعشرين والدقيقة الخمسين شمالاً وليس لها تاريخ .

٩ - أرجوزة من أربعة وستين بيتاً وأسمها (ميمية الابدال) تتضمن
فائدة بعض النجوم الشمالية في سير السفن ويقاس بها على ستة أوجه ؛
وليس لها تاريخ .

١٠ - أرجوزة خمسة من واحد وخمسين بيتاً تتضمن ذكر الكواكب
المفيدة في الملاحة ، وتاريخها يرجع إلى سنة ٩٠٦ هـ .

١١ — أرجوزة في عدة الشهور الرومية تتألف من ثلاثة عشر بيتاً

ليس لها تاريخ .

١٢ — أرجوزة مسماة بضريبة الضرائب، تتألف من مئة واثنين

وتسعين بيتاً في ذكر الكواكب المفيدة في الملاحظة، ليس لها تاريخ .

١٣ — أرجوزة من ثمانية وأربعين بيتاً منسوبة لسيدنا علي بن أبي

طالب كرم الله وجهه في معرفة منازل القمر وحققتها وأشكالها وعددها، أولها:

الشرطين^(١) فهو رأس الحمل أبدأ بذا في وقته المعتدل

ثلاث نجمات كما خط الألف لكنه عن القوام منحرف

ثم البطين^(٢) وهو بيدوفاني ثلاثة تشبه للأثافي

أما الثريا فهو نجم يعرف والناس في أعدادها تختلف

وليس لها تاريخ .

١٤ — قصيدة من مئة واثنين وسبعين بيتاً اسمها المسكية لتغزله فيها

بأهل مكة وموضوعها الطرق البحرية من جدة إلى رأس فرتك لسالكوت

فهرموز، يقول أنها اختراع حاج خلف الليوث شهاب الدين بن ماجد،

وليس لها تاريخ .

١٥ — أرجوزة من ستة وخمسين بيتاً اسمها (نادرة الابدال) على النسر

الواقع والعيوق .

(١) الشرطان محرّكة نجان من الحمل .

(٢) منزل للقمر ثلاثة كواكب صغار كأنها أثافي وهو بطن الحمل .

١٦ — القصيدة البائية المسماة بالذهبية من مئة وأربعة وتسعين بيتاً تبحث عن الصخور البحرية وعن الأعماق وعلامات البر ، وليس لها تاريخ .

١٧ — القصيدة المسماة بالفائقة ، من سبعة وخمسين بيتاً في قياس الضفدع ويسمى فم الحوت اليماني ... وليس لها تاريخ .

١٨ — أرجوزة في مراقبة بعض النجوم والأبراج ، ويسمىها القصيدة البليغة .

١٩ — ثمانية فصول نثراً في المارذا ، ومعرفة بعض الأماكن ، وسر الأنوار في المحيط الهندي .

أما المخطوط ذو الرقم ٢٥٥٩ فإنه يحوي الأراجيز التالية :

١ — أرجوزة من ثلثائة وخمسة أبيات وتسمى بالسبعية لأن فيها سبعة علوم من علوم البحر غير الفراسة والاشارات ، وتاريخها سنة ١٨٨ هـ

٢ — أرجوزة من ثلاثة وثلاثين بيتاً ، وموضوعها علم الفلك في الملاحة ، وتاريخها سنة ٩٦٠ هـ .

٣ — قصيدة من مئة وخمسة وخمسين بيتاً . قال : سميتها هادية المعاملة لأنها من العيوب سالمة تبحث في النجوم التي توافق رسو السفن ، ووصف المواثي على الشواطئ من (الدبو) إلى (دابول) ، وليس لها تاريخ .

ومن دراسة مؤلفات ابن ماجد تستطيع أن تقف على ناحية من شخصية الرجل وأسرته ، فهو يقول في المخطوط ذي الرقم ٢٢٩٢ صحيفة ٣ من الوجه الأول : قال مصنف الكتاب رابع الثلاثة وهو حاج الحرمين الشريفين شهاب الدين أحمد بن ماجد بن محمد بن عمر بن فضل بن دويك ابن يوسف بن حسن بن حسين بن أبي معلق السعدي بن أبي الركائب النجدي عفى الله عنهم أجمعين . ويلقب نفسه بشاعر القبليتين مكة والقدس ، والذي أتم الحج إلى الحرمين الشريفين سليل الأسود وأسد البحر بلا منازع . أنا أحمد بن ماجد أنا المعلم العربي .

وكان أبوه وجده من قبله ملاحين شهيرين في مياه تلك البحار وقد جاء ذكرهما في عدة مواضع في الكتاب قال : « فقياسات بحر قلزم العرب وبر المل ، مما يلي المعجم وبر العرب لم يجوزهما (كذا) في زماني غيري واستغفر الله من الزيادة والنقصان ، ولم أذكرهما في هذا الكتاب خوفاً أن يقع عليه السفهاء يحاول بها العاماء فيصيرون في معرفة القياسات في هذا البحر ... إلا أن جدي عليه الرحمة والغفران كان نادرة في ذلك البحر واستفاد منه والذي عليه الرحمة والغفران أكثر من ذلك ، وقد أخذت علم الرجلين مع كثرة التجربة فخررت ذلك البحر القلزمي ... »

ومثله في الصحيفة الثامنة والسبعين يقول : « ولم تذكر شيئاً من بحر القلزم قلزم العرب فيجب أن تذكره إن فيه نواذر وحكم لم يذكرها إلا من جربها لأنه على طريق الحاج ، وقد كان جدي عليه الرحمة محقق

(كذا) فيه ومدقق ولم يقر لأحد فيه ، وزاد عليه الوالد رحمة الله عليه بالتجريب والتكرار وفاق علمه علم أبيه ، فلما جاء زماننا هذا وكررنا قريباً من أربعين سنة ، وقد حررنا وقررنا علم الرجائين النادرين وورثناه...» وكان والده على شيء من الأدب والثقافة إلى جانب شهرته البحرية وهو يتكلم عنه بثقة فيقول : « وكان الوالد عليه الرحمة يسمونه الربانين ربان البرين ، ونظم الأرجوزة المشهورة الحجازية فوق ألف بيت ، ومع ذلك كله قد أصلحنا له منها ما رأينا فيه الخلل ورتبنا ما لم يكن فيها ... » وكان يعتمد كثيراً على رأي والده ومؤلفاته في أسفاره من ذلك يقول عندما يتكلم عن الحفاف في البحر القلزمي : « ولما أرسينا فيها سنة ثمانئة وتسعين في الهجرة - ١٤٨٥ م - واتفق الناخوذ^(١) والذبان^(٢) على الصراية بين (أسما) وبين (مسند) فلم أطاوعهم على ذلك ، لأنني رأيت في أرجوزة الوالد أنه لم يكن بينهم طريق في قربهم ، فإذا تباعد وحوطهم الشهبان ، ولم يكن طريق إلا على باعين واستشرنا بعضنا بعضاً فقلت لهم : الرأي إرسال سنبوق قبلنا بيوم واحد ، فراح السنبوق وعنده البلد فوجد الماء باعين ولم يتغايير السنبوق ، فرجع بين (مسند) (وساموه) فجاء لنا آخر النهار ، وكانت أرجوزة الوالد خيراً لي من جميع ميراثه في ذلك المسكان ... » وكما أن ابن ماجد كان في علمه تلميذاً لأبيه وجده فقد كان أيضاً تلميذاً لبحارة قدماء قبله ، درس مؤلفاتهم وكتبهم واطلع عليها وعمل بها

(١) الناخوذ : صاحب السفينة . (٢) الربان : رئيس الملاحين .

فمن ذلك يقول: «... وفي هذا الفن كتاب المجسطي البطلموسي وهو كتاب يوناني فمرب عنه المؤمن بن هارون بعض أجزاءه ، ومن كتب هذا الفن كتاب البناني^(١) وزيج ابن الشاطر المصري^٢ وعليه أكثر حكم الديار المصرية ، وكتاب أبي حنيفة الدينوري ، وكتاب الطوسي وكتاب أبو المجد اسماعيل بن إبراهيم الموصلية... وكتاب المشترك لياقوت الحموي ، وكتاب ابن سعيد ، وكتاب ابن هوقل فإنه مستوفي العرض الطول ، والدرج والبلدان ، والجبال والمدن ، والبحيرات ، والأنهار ، والأودية والجبال والأرض والسماء والأقاليم والكواكب والأطوال والعروض والقبلة . وقد دليتك على هذه الكتب فإن كنت أيها الطالب تريد الغاية أطلب هذه الكتب فإني وقفت على أكثر مما ذكرت لك وأخذت من كل شيء أحسنه من الذي يليق بهذه الصنعة ... »

وإن ماجد في موضع آخر يبين لنا فائدة هذا العلم ويظهر لنا شأنه لأن أهل الفرائض كانوا يدرسونه عليه . يقول بعد البسملة والحمد لله والصلاة على النبي : « إني رأيت العلوم في الدنيا أسمى مفخراً وأجل مرتبة وأشرف منقبة لقوله ﷺ وتحرير سائر الأنبياء على طلب العلم حتى قيل : ما من علم قبيح إلا والجهل أقبح منه ، فكيف وهذا علم لم تعرف قبلة الاسلام إلا به ما صح منه ، والدليل على صحته إني أقول وأفعل به ، فيأطال ما قد أتينا بالراكب من الهند والشام والزنج وفارس

(٢) يقول الاستاذ كرد علي أنه دمشقي .

(١) لعنه البتاني .

والحجاز واليمن وغيرهم بقصد لا يعيل عن جهة البلد المطلوبة بأموال وأرواح، وهذا دليل موكد أن هذا العلم يدل على القبلة فيحتاجون إليه أهل الفرائض وقد قرأ علينا فيه كثير من علماءهم وقضاةهم لمعرفة القبلة واستحسنوه وعملوا به دون غيرهم من العلوم التقريبات كمنصب الدائرة وركز العود فيها، ومعرفة طول مكة وعرضها، وطول البلد التي أنت فيها وعرضها، لم يكن طول وعرض جميع البلدان والجزر الجنوبية في البحر، ولم يحتاجون (كذا) فيه علم، وعلمنا يحكم على جميع ذلك لأن البحر أكثر من البر فرتبنا الكتاب ليرتقي الإنسان به، فإن أمكنه المعرفة بعلم الدائرة والأطوال والعروض ومعرفة جهات الكعبة والأرياح الأربعة وهي: شمال ودبور وجنوب وصبا؛ وهذه الأرياح الأربعة الشهيرة في الدنيا، وأما اصطلاح الناس فهو كثير كل بلد لهم اصطلاح ... »

وهو بحث على تعلم هذا العلم فيقول: « ... فاجتهدوا فيه فإنه علم نفيس ولا يتم إلا بتمام العمر ومن لا يدرك كله لا يترك كله ... » ثم يقول: « فيها أنا اختصرت منه ما يليق لأهل زمانى في هذا الكتاب المسمى بكتاب الفوائد في أصول البحر والقواعد الفقهية وصنفته لركاب البحر ورؤسائه... وهو مشتمل على فوائد كثيرة وغوامض وظواهر: اثني عشر فائدة ... » .

ويقول ابن ماجد إن أول من ركب البحر وصنع السفينة - هو نوح عليه السلام وسفينته اسمها هيراب، ثم يتكلم لنا عن الطوفان وموضعه

والمكان الذي رست فيه السفينة ، وتعلم الناس عنمة السفن على جميع
سواحل البحر في جميع الأقاليم التي قسمها نوح بين أولاده « ٠٠٠ حتى
انتهت الدنيا لعصر بني العباس فكان استقامة ملكهم ببغداد وهي عراق
العرب وكان خراسان جميعه لهم ٠٠٠ »

وهنا ينتقد ابن ماجد كتاب (الرهمني) الذي ألفه ثلاثة رجال
مشهورين في زمن بني العباس وهم : محمد بن شادان وسهل بن أبان ، وليث
بن كهلان ، وقد رأى نفسه هذا الرهمني ؛ وتاريخه يرجع إلى سنة ٥٨٠ هـ
قال : « فاعتنوا بتأليف هذا الرهمني الذي أوله : إنا فتحنا لك . ولم يكن
فيه أرجوزة ! ولا قيد إلا في كتاب ملفق لاله آخر ولاله صحة ، يُزاد فيه
وينقص ، وهم مؤلفين لا مصنفين (كذا) ولم يركبون البحر (كذا)
إلا من سيراف إلى مكران سبعة أيام ، ومن مكران إلى خراسان شهراً
واحداً فاستقربوا الطريق وهي مسيرة ثلاثة أشهر من بغداد وصاروا
يسألون عن كل برأهله ويورثونه ، وكان في زمانهم من المعاملة المشهورين
عبد العزيز بن أحمد المغربي ، وموسى القنذرائي ، وميمون بن خليل ، وألف
قبلهم أحمد بن تبرويه وأخذوا من مؤلفاته ، وأخذوا الوصف من المعلم
خواشير بن يوسف بن صلاح الأركي ، وكان يسافر في عام أربعائه من
الهجرة النبوية ، وماقارب منها في مركب (دبوكره الهندي) وكان في عصرهم
من النواخذ المشهورة أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن الفضل بن أبو
المغيري ؛ وكان أكثر علمهم في صفات البرور ، ومسائرات البرور أكثرها

من تحت الزنج وبر الصين ، وقد اندرست تلك البنادق والمدن وتنكّرت
أسمائها .»

ثم يمدح كتابه وما يحويه من العلوم والتجارب والاختراعات فيقول :
« ولم يستفد في زماننا هذا شيئاً له صحة كهلومنا وتجاربنا واختراعاتنا
التي في كتابنا هذا لأنّها مصححة مجربة ، وليس على التجريب شيء منة ،
ونهاية المتقدم بداية المتأخر ، وقد عظمنا علمهم وتأليفهم وجللنا قدورهم
رحمة الله عليهم بقولنا : أنا رابع الثلاثة ، وربما في العلم الذي اخترعناه
في البحر ورقة واحدة تقيم في البلاغة والصحة والفائدة والهداية والدلالة
بأكثر ما صنّفوه . . . وقد وقّرتهم بقولي : إني رابعهم لتقدمهم في الهجرة
فقط وسيأتي بعد موتي زماناً ورجالاً (كذا) يمرنون لكل أحد منا
منزله ولما اطاعت على تأليفهم ورأيتهم ضعيف (كذا) بغير قيد ولا صحة
بالكلية ، ولا تهذيب ، هذبت ما صح منه وذكرت الاختراعات التي اخترعها
وصححتها وجربتها عام بعد عام ، في نظم الأراجيز والقصائد في هذا الكتاب
عام ١١٨٠ هـ - ١٤٧٥ م ، ٧٦ م فاستحسنوه الماهرين (كذا) من أهل هذا
الفن وعملوا به واعتمدوا عليه في شدائدهم ، مثل رؤيا الجبال ، ومثل
القياسات ، وأسماء النجوم ، ومعرفتها والهداية عليها . . . »

وابن ماجد يورد لنا بعض الأساطير عن الملاحنة وما يتعلق بها فيقول :
« كل فن من فنون البحر له أصل ؛ فأصل السفينة ذكرناها أنه من نوح
عليه السلام . وأما المغناطيس الذي عليه المعتمد ، ولا تتم هذه الصنعة إلا

به ، وهو دليل على القطبين فهو استخراج داود عليه السلام ، وهو الحجر الذي قتل به داود جالوت . . . » « . . . وأما منازل القمر وبروجه تصنيف دانيال عليه السلام . . . وأما نجوم اخنان الحقة واسماؤها هو تصنيف قديم قبل الليوث المتقدم ذكرهم رحمة الله عليهم . . . وأما ضرب بيت الأبرة بالمغناطيس قيل أنها من داود عليه السلام لأنه كان معنى (كذا) بالحديد وخواصه . . . وأما الاخوان التي هي اثنين وثلاثين خنثاً قسموها على المركب وجعلوها زيجاً لاخساً والخصاً هو الفرد لا يقبل القسمة . . . »

ثم ينتقل ابن ماجد إلى ما يجب على الربان معرفته والوقوف عايه فيقول :
 « أولاً معرفة المنازل ، والأخنان ، والدير ، والمسافات ، والباشيات ، والقياس ،
 والاشارات ، وحلول الشمس والقمر ، والأرياح ومواسمها ، ومواسم البحر
 وآلات السفينة ، وما يحتاج إليه ، وما يضرها وما ينفعها وما يضطر إليه في
 ركوبها ، وينبغي أن تعرف المطالع والاستوايات ، وجلسة القياس ، وترتيبه ،
 ومطالع النجوم ، ومغاربها ، وطولها وعرضها ، وبعدها وممرها إن كان مهاماً
 ماهراً ، وينبغي أن تعرف جميع البرور وتدخاتها ، وإشاراتها كالطين ، والحشيش
 والحيات ، والحيتان ، والموارز ، والأرياح ، وتغيير الأمواه ، ومد البحر
 وجذره في كل طريقه ويكمل جميع الآلة ويفقد في إحصان السفينة وآلاتها
 ورجالها ، ولا يشحها غير العادة ، ولا يطاع في مركب لا يطاع فيه ، ولا
 مركباً بغير اعتداد ، ولا في موسم ضيق ، ويحترز الأخطار مثل : عدة ،
 ورجال وغيره . وينبغي للمعلم أن يعرف الصبر من التواني ، ويفرق بين

العجلة والحركة عارفاً عالمًا بالأشياء عزّامًا فتاكًا ليس في قوله ، عادلاً لا يظلم أحداً لأحد ، مقيم على الطاعة تريب متق لله تعالى ، لا يفضب التجار على حقوق إلا على شيء وقع عليه القول أو جرت به العادة ، كثير الاحتمال على المهمة ، هبّاراً مقبولاً بين الناس ، لا يسعى فيما لا يصلح له ، أديباً لبيباً ، وإلا فليس هو معلم بالقاعدة ...»

وفي موضع آخر يقول : « فإن شئت فقل وفسدت هذك في التختات فلا تترك الحزم ، والحذر كل الحذر من قول الجهال والباحثين ، خصوصاً في (غبة تيهان) ، و (غبة الحشيش) وأنت ناتج بالكوس في المغرب ، وربما أنك المغرب وأنت في الماء الأسود معترضاً على أول الغبة طول الليل بريح طيب ، ومجراك الواقع ومغيب السياك بالكوس ، فالحذر الحذر في مثل ذلك وهماستين باعاً على رأس دائرتيها فلا تدخلن في أقل من ذلك إلا عند ربح النبات ، وكل غبة احسب حساب ربحها وموسمها فإن المرء عدو ما جهله ، ولا تخاف في الريح والموسم ولا تنزعج من كلام الركاب والبجارة واجتهد على حسن العاقبة ، فقد حذرتك فلا تلومن إلا نفمك ، واحتمال على فساد الترفا بالتجارب والسياسة والفراسة ...»

ويحذر ابن ماجد ربان السفينة بقوله : « ولو أنك جمعت ما جمعت في هذا الفن وضعت تصانيفي وحفظها غيرك استطال عليك بها ، واهم أن للبحر علل (كذا) فاحذر منها ، أولها : « نوم المعلم ، وحط الجاه في الليل في مكان وفي النهار في مكان غيره وذلك مما يطول الطريق ، ويحسب المعلم

أهـ يجري في مجرى وهو مجري في غيره من قلة معرفته أو من فساد
 حَقَّتْهُ أو سَمَكَة مَضْرُوبَةٌ بِمَجْرٍ فِرْقَدِيٍّ أو بِمَجْرِيٍّ بِالْقَدَامِيِّ ، أو بِالكَابِ أو
 الدستور في نصف القفل خصوصاً عند الوجه والتقاصير ، والمركب الزاقع
 المزمّن في الماء فيحسب المعلم أن المركب شادّ على صدره وهو مجري
 على العمرانيات ؛ وقد وقع علينا كل ذلك فصرّفتنا أنفسنا فيه ، وهذه الاشارات
 تنبه الذهن عند العالم بهذا الفن ؛ والجاهل كالأرض الخراب وهذا الكتاب
 عدو الجاهلين وتحفة نفيسة عند العارفين لأنه لم يصنف مثله في هذا الفن
 مشتمل على الأصول وفروعه يليق بمجلس الخاص والعام ، ويستفيدها المعلم
 وغير المعلم ، والحذر كل الحذر من صاحب السكان لا يتقل عنه فإنه
 أكبر أعدائك ، فلم تدر عند التتخة من غريمك من أهل السكان . وما
 صنفت هذا الكتاب إلا بعد أن مضت لي خمسين سنة (كذا) وما تركت
 فيها صاحب السكان وحده إلا أن أكون على رأسه أو من يقوم مقامه . . . »
 وابن ماجد يشرح لنا سياسته في ترتيب المركب والعسكر فيقول :
 « اعلم وفقك الله إذا عرفت جميع ذلك [من المنازل والاختان والدير ،
 والباشيات والنجوم ومواسمها] وأردت الفعل به تأمل في السفينة وهي
 فوق الأرض واكتب جميع خللها ، وقليل في زماننا من يفعل ذلك في
 الناس ، وإنا القول على أهل الكمال ليس القول على مفلس يبيع نفسه
 وعرضه بأيسر شيء من الطمع ، وإذا ركبت فيها انصب عوداً وفيه
 خرقه دُراً وحريراً وقطن (كذا) لتعريف الريح به من أي خن ، وجلس

الحقّه في مكانها ، وتفقد كل التفقد أول في نصب الحقّه لأن من المراكب
 ما يكون في نجارته خال فيمدي بك على جراك فاستدرك الأمر بأوله ،
 وتأمل الجاه بالليل وحطّه في مكان يوافق المكان الذي حكمت عليه بالحقّه
 بالنهار ، حتى لا يكون بالنهار مجرى والليل مجرى ويطول الطريق ، فحكم
 جميع ذلك أول سفرك فما تنفع الندامة آخر السفر وتتخات القبيحة . وتفقد
 في جميع الركاب والمسكر وتأمل نهوضهم لتكون عارفاً بهم عند الشره ،
 واعمل خلاصك ، واسمع جميع أقوالهم وخذ ملاحظتها ودع قبيحها ، وكن حازماً
 قوياً في قولك ليسن الطيبة ولا تصحب من لا يطعمك فيما يعينك ، فلم
 تجد لك في الشائد شريكاً إلا الاسرار وكن شجاعاً ذو بأس (كذا)
 قليل القفلة كثير الهمة كثير الصبر ، والاحتمال تقياً نقياً لا تظلم أحداً
 لأحد ؛ وتأمل جميع الآلات خصوصاً في السكان في كل حين وساعة ،
 وتأمل بحسن النبا المستقبل ، لا يعمك التهب الذي أنت فيه فإنه منسي ،
 ولا تنام إلا بقدر ما يدفع عنك السينة والسهر ، وعندما ترقد لا تخلي المسكن
 وحده ، وحارب النوم الحرب الكلي :

فإن الخير أبقي وإن طال الزمان به والشر أخبت ما أوعيت من زاد

ولا ترى خالاً في السفينة وتهملها إلى وقت آخر إلا عند الضرورة أشد
 مما أنت فيها ، وجود الموسم ، واختصر الشحنة ، واحسب حساب الحازمين
 العارفين الخير والشر كما قال الشاعر في ذلك شعراً .

فما كل من يُغري بشيء يناله ولا كل من يستعمل الشكر يشكر
وقال حازم من العرب شعراً حميماً :

صاوا الحزم فالخطب الذي تحسبونه يسيراً فقد تلقونه متمسراً
فإن قصرت في شيء من ذلك فلا تلومن إلا نفسك فإن دركك أعظم
درك من جميع من ركب البحر ، فإن فعلت ما أمرتك به وأخطأت فأنا الملوم
حياً وميتاً ، وأما القضاء والقدر فهو غالب لأنه من الله تعالى . . . »

ثم يورد بعض الآيات التي يجب على راكب البحر أن يتلوها ، وبعض
الأدعية التي يتقرب بها من الله لأنه سبحانه وتعالى هو الصاحب في السفر
والخليفة في الأهل فينبغي الإقامة بشكره خصوصاً في ركوب البحر لأنه
يزجي لنا الفلك في البحر والبر فاستغفره ولندعوه ولننقيه حق ثقته .

وكثيراً ما نسمع ابن ماجه في كتابه يقول إن هذه الصناعة عقلية لا نقلية
ويوصي البحارة فيها : « وقد ذكرنا في هذا الكتاب جمّ فوائد تغني العارفين
المتأملين في أوائله وأواخره عما سواها ، والحكمة ضالة المؤمن . فاطلب ضالتك ،
ولو في أهل الشرك فإنها صنعة عقلية لا نقلية ، فينبغي للإنسان أن يعرفها ويسأل
عنها ، ويكثر السؤال ويأخذ المليح ويدع القبيح . . . »

وهو في كتابه ممتد بنفسه يتكلم عن ثقة وحزم فيقول عند كلامه عن
القبلة : « ويكفي بحقدار معرفتنا للعارفين بعد موتنا ، وأما في القبلة التي وضعناها
كفاية للخاص والعام فعند الامتحان يكرم الرجل المهان فإن صنف من عصر
آدم عليه السلام إلى يومنا هذا أعم منها نفعاً فأنا الكاذب فيما قلته ، فإننا رأينا

تصانيف الأولين كابن الوردي وغيره جعلوا الهند والسند في قسم واحد ،
وجعلوا الحبشة في قسم واحد تقريباً ، وتركوا أكثر الدنيا مجهولة خصوصاً
على ما هو بقرب البحار ، وأهملوا النجوم والحجاز والتهائم فخير الناس من
عذر الناس . . . »

وابن ماجد قد جمع بين شخصية الملاح الماهر وشخصية الأديب المثقف
فكثيراً ما نراه في مؤلفاته يورد شواهد شعرية تتضمن الناحية التي يشرحها ،
فإذا كتب عن منازل النجوم مثلاً أتى بشاهد على أسمائها من الشعر القديم :
وأمت نجوم الأخذُ غيراً كأنها مقطرة من شدة البرد كُشف
ومثله :

في الشرق كاس وفي كبد الساقم وإن تولت على غرب فعنقود
وأحياناً يأتي بشاهد من شعر ابن المعتز :

زارني والدجى أحم الحواشي والثريا في الغرب كالعنقود
وكان الهلال طوق عروس جليت لي على غلائل سود
ليلة الوصل ساعدينا بوصل طول الله فيك غم الحسود
وأحياناً يورد نثراً في معرض كلامه عن الثريا فيقول :

وهي على صغر نجومها خفافة كما تيل فيها في الخطب كأنها روح في السياق
أو أقراط خود ترتعد حذراً من الفراق ، أو باقة من نرجس ، أو كأساً يدار
في مجلس ، وهي شامية للمنزلة والحن وكثير ما شهرت من العرب والمجم
وسائر الأمم دون غيرها من النجوم ، وذكرها مهمل ليلة حربه في الرائية قال :

كَأَنَّ النُّجُومَ إِذْ وَلى سَحِيرًا
فَصَيْلٌ حَنٌّ فِي يَوْمِ مَطِيرٍ
وَقَالَ قَتَادٌ :

كَأَنَّ الثَّرِيَّا رَاحَةٌ تُشْبِرُ السَّجِيَّ
لِيَعْلَمَ طُولَ اللَّيْلِ مِنْ قَدِّ تَهْرُصِنَا
قَلِيلٌ تَرَاهُ بَيْنَ شَرْقٍ وَمَغْرِبٍ
يُقَاسُ بِشَبْرِ كَيْفِ بَرَجِي لَهُ انْقِصَانَا
فَمَا كَانَ مِنْ حَرٍّ يَنْسَبُ إِلَى طُلُوعِهَا بِالْفَجْرِ ، وَمَا كَانَ مِنْ بَرْدٍ فَيَنْسَبُ إِلَى
عُرُوبِهَا بِالْفَجْرِ عِنْدَ الْعَرَبِ ، لِأَنَّهَا شَهِيرَةٌ عِنْدَ الْحَاضِرِ وَالْبَادِي فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ
فِي جَمِيعِ الدُّنْيَا تَعْمُ عَلَى الْأَقَالِمِ جَمِيعًا إِنَّهَا شَقَاقَةٌ ، وَقَالَ فِيهَا عَمْرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ :
أَيُّهَا الْمَنْكُوحُ الثَّرِيَّا سَهِيلاً
عَمْرُكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ
هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ
وَسَهِيلاً إِذَا اسْتَقَلَّ عَائِي «

وَأحياناً يورد شواهد من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم فيقول :
« واختلف الناس في عدد نجوم الثريا ، وكان النبي ﷺ يقول للعباس
عمه : سوف يأتي من ذريتك بأضعاف عدد نجوم الثريا ملوك ، فجاء
منهم ستة وعشرون خليفة . . »

وَأحياناً يأتي بشاهد من شعر الأخطل فيقول :
فَهَلَّا زَجَرَتِ الطَّيْرَ لَيْلَةَ جِئْتِهِ
بِضَيْقَةٍ بَيْنَ النُّجُومِ وَاللَّيْلِ بَرَانِ
وَتَارَةً تَرَاهُ يورِدُ شواهد من شعر عنترة على السامك فيقول :
« وقال فيه عنترة بن قراد في لاميته :

إِنْ كُنْتُ مِنْ عِدَدِ الْعَبِيدِ فَهَيْتِي
فَوْقَ الثَّرِيَّا وَالسَّامِكِ الْأَعْزَلِ
وَمِنْ قَوْلِ الطَّنْجَرَانِيِّ فِي لَامِيَةِ الْعَجَمِ :

وإن علائي من دوني فلا عجب لي أسوة بأخطا الشمس عن زحل
ويشرح ابن ماجد البيت فيقول :

« يتمثل فيمن علاه وهو دونه حتى تتل بالشمس وزحل لآنها فوقها ،
وهي أنور منه وأظهر ، وكذلك المواء والسماك »

ثم يستطرد إلى أمثال العرب فيقول : « والعرب يتمثلون بكل شيء
يدخل في أمثابهم بالسماك بالرفعة ، ويتمثل في المز بالعنقاء فقالوا : أعز من
العنقاء ، وأضخم من فيل ، وأسمع من فرس في ظلمة وغلس ، وأنوم من
فهد ، وأيقظ من ذئب لأنه ينام بهين واحدة حتى يشبع يوماً ، فيطأها
ويغمض الأخرى ، وينام فيها فيستريح بالناثئة ويختبر باليقظة وهو على
ذلك كما قيل فيه :

وعمت كنوم الذئب في ذي خفيضة أكلت طعاماً دونه وهو جائع
ينام بإحدى مقتلته ويتقي بأخرى الأعادي فهو يقضان^(١) هاجع
وقالوا فلان أكرم من ديك وأعلم من نمل وأشرب من رمل ٠٠٠»
إلى آخر ذلك من الأمثال وهذا نوع من استطراد ابن ماجد الذي يقصد
به الأحموسة والترويح عن نفس القارىء أثناء المطالعة والدرس .

وكثيراً ما يورد شواهد من نظمه نفسه كالأراجيز التي ألفها في
موضوع الملاحاة وهي كثيرة منها قوله :

يا سائلي عن مهفة القياس أعلم وعلمه جميع الناس

أبلغ

(١) ربما كانت لغة ابن ماجد قلب الظاء ضادا .

وقوله عن العوآء^(١) والسماكين : العوآء تنسب للنحاس ، والسماكين
ينسب إلى السمود والرفعة مثل الثريا والدران ، وأحسن ما قلنا فيه :

حضر المدامُ ومنيتي والماء فاحا العذول وعذله إغراء
أين الملام من المدام وشربها بعنهف ماذا وذاك سواء
بالماء يحيا كل فهن ناصر وكذا الملاح حياهن الماء
إني وفيت لمن آلام به ولو قيل الغواني ماهن وفاء
لاغرو إن ملك الحبيب مقاودي هذا (السماك) تقوده (العوآء) «

ومن خمرياته ، وهي كما قال : « الأشمار الفائقة الرائقة في عصر الشبيبة :
صفراء ساطعة كالنار لم أرها في الكأس إلا نفت هي وأحزاني
أصلحتها فقراح الماء من حذري وكيف تصلح أمواه لنيران »
وهذا قليل من كثير وغيض من فيض من أدب ابن ماجد الملاح
العربي الذي يعود إليه الفضل الأول في إيجاد كثير من آلات الملاح
وأدواتها ، وأشهرها : الأبرة المغناطيسية التي لا يزال اسم مخترعها مجهولاً
عند كثير منا معشر العرب ، فقد حدثنا ابن ماجد عن نفسه قال : « ومن
اختراعنا في علم البحر تركيب المغناطيس على الحك بنفسه ولنا فيه حكمة
كبيرة لم تودع في كتاب ؛ إنه لم يقابل الجاه إلا سهلية فيزوا في هذه النكته
فإذا كان أحد يعرف فنحن مسبوقين (كذا) وكذلك رتبنا المنكاب
وأدر كناه في الذهبية وشرحها ... »

(١) منزل للقمر خمسة كواكب أو أربعة كأنها كتابة ألف .

لهذا لم يكتم الاستاذ بيرتون الانكليزي دهشته عندما قال « من الغريب أن الشرقيين يجهلون مُخترع الأبرة المضاطيسية مع أنه شرقي ... ولقد كان بحارة عدن في سنة ١٨٥٤ م يتلون الفاتحة على روح ابن ماجد مخترع الأبرة المضاطيسية كلما أقلموا منها » .

ويقول جيمس برنسيب : « إن ذكرى ابن ماجد مازالت حية في الهند وفي جزر مالديف في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهم يعتمدون على القواعد التي وضعها في علم الملاحة . وقد كنت بحثت كثيراً على ييكار عربي فلم أعثر عليه ولا في شراع ، وأخيراً وجد لي صديقي السيد حسين سيدي رسماً له في كتاب في الملاحة العملية يسمى (ماجد كتاب) عند ربان السفينة ، فزق السيد حسين الورقة من الكتاب بدون اكرات ليرينها لأن الربان لا يستغني عن كتابه هذا ، إذ بدونه يتعذر عليه الرجوع من رحلته »

وأما تاريخ ولادة ابن ماجد فغير معروف عندنا على الضبط ؛ إلا أننا نستطيع أن نستنتج من تواريخ مؤلفاته أن عمره كان ٢٥ - ٣٠ سنة عام ١٤٦٢ م ولما ألف كتابه الحاوية كان عمره ٥٢ - ٥٧ سنة ، وعندما وضع كتاب الفوائد كان عمره ٥٦ - ٦٣ سنة ، وعندما أنهى قصيدته كان ذلك حوالي عام ١٠٩٤ - ٩٥ م وبعد ثلاث سنوات أو أربع أي في نيسان من سنة ١٤٩٨ وصل واسكو دوغاما إلى ملندي واصطحبه معه ، وأما تاريخ وفاته فلم يعرف عنه شيء .

ونحنم بحثنا بشهادة الاستاذ فيرّان بمؤلفات ابن ماجد بصورة موجزة
قال : « إن هذا الكتاب يضم بين دفتيه معلومات كثيرة نظرية وعملية في علم
الملاحة ، وهي خلاصة تجارب ابن ماجد الشخصية ، وعلى هذا يمكننا أن
ننظر إليه كأساس لعلم الملاحة في السنين الأخيرة من القرون الوسطى ؛
وبعد الأول بين مؤلفي علم الملاحة من تلك الأزمان الى العصر الحاضر .
فوصفه للبحر الأحمر مثلاً لم يسبقه إليه ولم يجاره فيه أحد بين مؤلفي علم الملاحة
من الاوروبيين الذين كانوا يزاولون الملاحة الشراعية ، هذا إذا أغضينا عن
بعض خطيئات في خطوط الطول ؛ أما المعلومات عن رياح بحر الهند والرياح
المحلية والطرق وخطوط الطول لمرافئ المحيط الهندي كله فهي متقنة ومفصلة
أكثر مما يمكن أن يكون في ذلك العصر . وأما معلوماته عن اندونيسيا فكانت
أقل نسبياً عنها في بقية المحيط الهندي . وله خطيئة لا يمكن أن نعرف سببها
هي قوله : (إن جاوا متجهة شمالاً جنوبياً) خلاف اتجاهها الحقيقي ، ولقد وقع
الملاح سليمان المهري الذي كان يعيش في النصف الأول من القرن السادس
عشر في الخطيئة نفسها ، ونقلها سيدي علي في ترجمته التركية »

هذه ناحية مجيدة من نواحي الثقافة البحرية العربية مدنية الى علماء
المشريات المستعربين بتحقيقها ونشرها ، ومازلوا يطالعوننا بين الفينة والفينة
بتحف من مفاخر أجدادنا خدمة للعلم واتصاراً للحقيقة ، وإنا على الرغم من
هذه الحقب المتطاولة بين حاضرنا وماضينا الزاهر ، نرى الأيام تكشف لنا عن

كنوز مطوية في مجاهل النسيان هي تراث اسلافنا من كان لهم أثر عظيم في بناء صرح الحضارة وإنارة معالمها في شتى العلوم والفنون ، حتى أصبح عبقدة من عقائدنا أن ما اندثر من هذا التراث وتلاشى بين سمع الدهر وبصره أكثر بكثير مما وصل إلينا ، وسلم لنا من عوادي الأيام ؛ وإن الخزانة الجغرافية العربية لتزهو فخراً بإضافة مؤلفات ابن ماجد إليها ، وإذا كان لهؤلاء العلماء فضل على ابن ماجد في تخليد اسمه بين جغرافيين العرب وملاحهم ، فلأن ابن ماجد نفسه شخصية تاريخية كان له أكبر فضل على الاكتشافات الجغرافية والحضارة الغربية بما أوجده من آلات وأدوات وعلوم ، حملت بها جيد الملاحة البحرية وستبقى ذكراه خالدة سجيس الليالي .

